حياته شعره

✍ ... ليس للشعراء من حياة تبقى خارج شعرهم، فهو الذي يجعل لوقائع وجودهم أهمية فكرية وتاريخية توثيقية. والأحداث الكبرى عندهم هى القصائد ، فغالبا ما تخلو الحياة الخارجية للمبدعين من معالم لافتة لو عزلت عن إنتاجهم، وكثيرا ما تكتسب الحوادث الصغيرة في مسيرتهم اليومية أبعادا خطيرة بحجم ما أسفرت عنه من منجزات إبداعية.

والحدث الأول في حياة أحمد شوقى هو مولده في البيئة التى نشأ فيها وتقلب بين أحضانها، لأسرة تجري في عروقها دماء متعددة الأجناس؛ عربية وتركية وجركسية ويونانية. فقد كان

جده لأبيه - واسمه أيضا أحمد شوقى - كرديا هاجر إلى مصر أيام محمد علي، وولاه سعيد باشا أمانة الجمارك المصرية. أما جدته لأبيه "نمزار" فقد استحقت ذكرا خاصا في تشكيل أرومته ؛ لأنها من أصل يوناني كانت تعمل وصيفة في قصر الخديوي، ولأنها هي التي كفلته في صباه ، ولكن أبويه ولدا بمصر وتربيا حتى أنجباه.

وقد شاع أنه ولد عام ١٨٦٨ نتيجة لما ورد في طبعة الشوقيات القديمة من أنه - على حد عبارته - كان يحبو إلى الثلاثين من عمره عند نشرها، والمعروف أنها نشرت عام ١٨٩٨ ميلادية. ولكن شواهد أخرى أثبتت غير ذلك ، فقد تبين أن عام النشر المؤرخ في شعر الشوقيات بالتقويم الهجري يقابل عام ١٩٠٠ ميلادية، كما أن ابنه حسين شوقى ذكر أن أباه حين توفي عام ١٩٣٢ كان في الثانية والستين من عمره ، وحسم الموقف نشر وثيقة تؤكد أن ميلاده كان ١٨٧٠، كما هو مثبت في شهادة الليسانس التي حصل عليها من باريس في الحقوق.

وقد تربى في حى الحنفى بالقاهرة بعد أن بدد أبوه ما تبقى من ثروته الموروثة. ولولا كرم جدته التى تكفلت بنفقات تعليمه في المدارس لما تجاوز الكتاب الذي حفظ فيه القرآن على يد الشيخ صالح. وقد ضمن له تفوقه الدراسي مجانية تعليمه في مدرسة

الحقوق ، كما أن علاقته بجدته هى التى ربطته بسدة العرش، فقـد كانت تحمله للقصر منذ طفولته، ومنها تلك المرة الشهيرة التى رآه فيها الخديوي فلاحظ حولا في عينيه فسألها عن علته ، فقالت : إنه يا مولاي لا يزال هكذا ناظرا أبدا إلى الـسماء، فـأخرج مـن جيبـه صرة من ذهب ونثرها على الأرض ، فخطف بريقها نظـر الطفـل وخفض عينيه. ضحك الخديوي قائلا للوصيفة: "كلما رفع عينيه انثري له ذهبا حتى يتعود النظر إلى أسفل"، فعلقت الجدة الذكيـة قائلة: "هذا دواء لا يخرج إلا من صـيدليتك يـا مـولاي"، فقـال: "جيئي به إلي متى شئت . إني آخر من ينثر الذهب في مصر".

وقد أتم تعليمه الثانوي عام ١٨٨٥، ثم التحق بقسم الترجمـة في مدرسة الحقوق وتخرج منها بعد عـامين، فعينـه الخـديوي توفيـق بالقصر، ثم أرسـله في بعثـة إلى فرنـسا ليواصـل دراسـة الحقـوق والترجمة ، فقضى عامين في مدينة مونبلييه قبل أن ينتقل إلى باريس ويظل بها عامين آخرين حتى عـاد عـام ١٨٩٣. ولأن حيـاة شـوقى ستحكمها بعد ذلك مجموعة من الـرحلات التـى تمثـل أبـرز معالمهـا وأشدها تأثيرا في شعره ، فإن تلـك الرحلـة العلميـة الأولى سـتكون حاسمة في تحديد منطلقاته الفنية والفكرية والثقافية ، ويكفى أن نبرز منها عددا من الحوادث التي تعد مؤشرات دالة على مسيرته الفنية:

- اشترك مع زميل له في البعثة يسمى "على أبو الفتوح" - مات شابا بعد أن وصل مبكرا إلى أن يصبح وكيلا لوزارة المعارف - في تشكيل "جمعية التقدم المصري" في فرنسا من الطلاب والدارسين لممارسة العمل الوطنى، وربطته صداقة حميمة بالزعيم مصطفى كامل، وتفتحت مداركه على ضرورة تبني مشروعات النهضة الوطنية.
- لقيه صديقه الأمير شكيب أرسلان في شوارع العاصمة الفرنسية وهو يتأبط ديوان المتنبى؛ فقد كان جسده في فرنسا وقلبه معلق بنبى كما كان يسميه. وهو ما يجعل تأثره بالثقافة الفرنسية محدودا ومقتصرا على المشهور من أعلامها، دون أن يتعمق في قراءة الشعراء الرمزيين والحداثيين أمثال رامبو وبودلير وفرلين كما يقول طه حسين ، ويكتفى بـ : لامارتين وبحيرته وهوجو وغيره ممن يعرفهم أوساط الناس.
- أصيب في فرنسا بمرض الكوليرا الذي أشرف به على الموت وترك أثرا عصبيا واضحا في تكوينه ووسوسته وخوفه من الموت وتأمله في الأقدار، وأثرا وجدانيا باقيا في تعلقه بالحياة. وقد ذهب للاستشفاء في الجزائر، فاطلع على ظروف شعب عربي مقهور تحت وطأة الاستعمار الاستيطاني الرهيب.

- التمس العودة لمصر بعد إنهاء دراسته، فصدر إليه أمر الخديوي بالبقاء لمدة ستة شهور أخرى لدراسة الأدب؛ وهو ما يجعله يتذكر دائما هامش حريته المحدود وطبيعة مصيره المعلق بكلمة من ولي النعم.
- حاول شيئا من التجديد في شعر المدائح بمقطوعته الغزلية "خدعوها بقولهم حسناء" وعندما بعث بها إلى الشيخ عبد الكريم سلمان محرر الوقائع المصرية صدرت الأوامر بنشرها دون المقدمة الغزلية اللعوب ، وكانت أجمل أبيات المدح، وانتهى الأمر بعدم نشرها كلية. واستخلص شوقى - كما قال في مقدمة الشوقيات القديمة - درسه الأول في الحرص على السلطة، وأن التجديد "مثل الأفعوان، لا يؤخذ إلا بأطراف البنان".

لكننا لن نستطيع في هذه العجالة الوجيزة أن نتتبع جميع رحلات شوقى ومؤشراتها الدالة في حياته وشعره، ونكتفى بأن نبرز منها أمرين: **أولهما**: مجموعة أسفاره ورحلاته شبه السنوية إلى تركيا ومدنها بما فيها مقر الخلافة التى كان يدين لها بالولاء نظرا إلى عدد من العوامل المركبة في طبيعة انتمائه العرقى من ناحية، وحماسه الديني من ناحية ثانية، وموقفه السياسي المناصر للعثمانيين

من ناحية ثالثة. وبالرغم من الحرج الذي وقع فيه عند إشادته بالبطولات الحربية التركية واضطراره لنقد هؤلاء الزعماء الأبطال أنفسهم عند إسقاطهم للخلافة، فإن الرحلة الأولى من شعر شوقى تزخر بالنصوص التى تتغنى بالطبيعة التركية وتدور في فلك السياسة العثمانية ، بل تتغنى بنموذج الجمال في المرأة التركية ، ولا شك أن هذه الأسفار المتواصلة كانت تشد حباله لهذا الأفق.

الأمر الثاني يمثل تحولا جذريا في توجهات شوقى، فبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى قامت سلطات الاحتلال الإنجليزي بخلع الخديوي عباس حلمى وعينت السلطان حسين كامل خلفا له، وشنت حملة اضطهاد لأنصار الخديوي المخلوع فصدرت الأوامر إلى شوقى بمغادرة مصر عام ١٩١٥، فاختار مدينة برشلونة الإسبانية منفى له، ولم يعد إلى وطنه إلا بعد انتهاء الحرب عام ١٩١٩. وكان لهذه الرحلة القاسية أثرها البالغ في شوقى إذ تأكد له أن الارتباط بالسلطة الحاكمة مدمر للفنان، وأن علاقته الحقيقية يجب أن تكون بالشعب، فتحول من شاعر الأمير المحبوس في قفصه الذهبى إلى شاعر الشعب الذي يتغنى بآماله وأحلامه. كما تبين له أن البعد العروبي هو الأبقى من العلائق الدينية بالدولة العثمانية، وكان لمعاينته الخلاقة للآثار العربية في

الأندلس أثر قوي في تنمية حسه القومى بما يمكن أن يعتبر اكتشافا للعروبة بأبعادها التاريخية المتعددة ، وتعزز ذلك بتقوية نزعته الوطنية في عشق مصر والتغني بأمجادها والتعبير الصادق عن طموحاتها في الحرية والنهضة.

وشهدت السنوات التى قضاها بالوطن عقب العودة ذروة نضجه الفنى والإبداعى إذ أصبح المعبر عن الضمير الوطنى والقومى، حتى اجتمعت نخبة من المفكرين عام ١٩٢٦ وألفت "اللجنة العامة لتكريم شوقى" وضمت أسماء طه حسين وأحمد أمين ومحجوب ثابت والآنسة مى زيادة وأنطون الجميل، وقررت إقامة احتفال عربي كبير في أبريل عام ١٩٢٧ لتكريم الشاعر العظيم.

وقبل الزعيم سعد زغلول رئاسة شرف الاحتفال، وحضرته وفود من أبرز الأقطار العربية، وألقى أحمد شفيق – رئيس اللجنة التنفيذية – كلمة الافتتاح قائلا: "السلام عليكم يا أمة العرب ... ها أنتم أولاء قد اجتمعتم من مختلف الأقطار لتكرموا شوقى، وبعبارة أصح لتكرموا العبقرية في شخص رجل منكم يعود إلى لغتكم بكل ما أحرز من فضل. ليست الأمم أيها السادة بكثرة عددها، إنما الأمم بمن تخرج من رجال عظام، فأولئك ثروتها

وعزها وذكرها الخالد على مر التاريخ.. وهذا شوقى عظيم من يوم ظهر، عبقري من يوم نجم، ولكم دوى صوته المرن بأغلى الشعر، ولكم جدد في لغة العرب وفسيح مجالها من بيان وأدب، ولكم رقى بها مرقى كريما بين لغات العالم" .

وانبرى حافظ يتوج شوقي بإمارة الشعر قائلا:

أمير القوافي قد أتيت مبايعا
وهذي وفود الشرق قد بايعت معي
فغن ربوع النيل واعطف بنظرة
على ساكن النهرين واصدح وأبدع

وأنشدت قصيدة مطران التي يقول فيها لشوقي:

أنت الأمير ومن يكنه بالحجى
فله به تيه على الأمراء
اليوم عيدك وهو عيد شامل
للضاد في متباين الأرجاء

وعندما أقعده مرض تصلب الشرايين فى أخريات سنواته عكف على استئناف مشروعه الإبداعى الرائد فى كتابة عدد من المسرحيات الشعرية التي أسست لهذا الفن في اللغة العربية، وذلك قبل وفاته عام ١٩٣٢.

نقاد شوقي

... كان شعر شوقى مادة خصبة أغرت أجيال النقاد العرب بمقاربتها من مختلف الرؤى والمنظورات: ابتداء من المراجعات اللغوية المبكرة التى كانت تنشر عقب إذاعة قصائده لتحرير كلماته ونقد قوافيه، إلى تيار النقد الرومانسى العنيف وتيارات النقد الاجتماعي وحتى أصحاب الاتجاهات الحداثية في النقد البنيوي والأسلوبي. ولعل أقوى هذه الأصوات التى أسمعت شوقي ما لا يحب من النقد كان صوت العقاد الجبار الذي ارتفع في مستهل تشكيله لما أطلق عليه فيما بعد مدرسة الديوان كى يجابه الشاعر المدلل بمقولاته الرومانسية الحادة عن طبيعة الشعر ووظائف الخيال فيه بطريقة ثورية ، فقد اتهم شوقي بمجموعة من النقائص في شعره، من أهمها التفكك والإحالة

والتقليد والولوع بالأعراض دون الجواهر ، أما التفكـك فهـو أن تكون القصيدة مجموعا مبددا من أبيـات متفرقـة لا تؤلـف بينهـا وحدة غير الوزن والقافية ، فالقصيدة عند العقاد ينبغي أن تكـون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر أو خـواطر متجانـسة كـما يكمل التمثال بأعـضائه، بحيـث إذا اختلـف الوضـع أو تغـيرت النسبة أخل ذلك بوحدة القصيدة؛ فهي كالجسم الحـي يقـوم كـل قسم منها مقام جهاز من أجهزته.

واختار العقاد لبيان افتقاد شعر شوقى لهذه الخاصية مرثيتـه في مصطفى كامل: "المشرقان عليك ينتحبان" ليثبت فقدانها للوحدة الفنية؛ ثم يعمد العقاد بعد ذلك إلى تعداد علاقات أبيات شـوقى بغيرها من أبيات الشعر القديم ليثبت عليه تهمة التقليد والمحاكاة، ثم يتحدث عن الولـع بـالأعراض دون الجـواهر فـيرى أن بيـت شوقي:

دقات قلب المرء قائـلة له إن الحيـــاة دقـائق وثـوان

"معناه في نظره أن السنة أو مائة السنة التى قد يعيشها الإنسان مؤلفة من دقائق وثوان، وهذا هـو جـوهر البيـت. فهـل إذا قـال قائل: اليوم أربع وعشرون ساعة والساعة ستون دقيقـة يكـون في عرف قراء شوقي قد أتى بالحكمة الرائعة ؟" .

والواقع أن العقاد ورفيقيه في مدرسة الديوان كانوا ينطحون صخرة الذوق الشعري العام ويطلبون المستحيل من الشاعر الغنائى الكبير ؛ لأن تحقيق الوحدة العضوية بالشكل الذي شرحه العقاد لم يكن يتوفر في أشعاره ذاتها كما قال له من دافعوا عن شوقى. بيد أن هذا الهجوم العنيف قد أفاد شوقى في شحذ إمكاناته الإبداعية وتوجيه طاقته الخلاقة لتجديد روح الشعر العربي وصياغته .

وربما كان الممثل الثاني للاتجاه الرومانسى في نقد الشعر أشد تفهما لطبيعة الشعر العربي، إذ أخذ يتلمس التصور في عدم التئام صورة الذات عنده وفقدانها للانسجام الضروري ، ومن الطريف أنه يوجه إليه هذا النقد في المقدمة التى طلب منه شوقي أن يكتبها لديوانه، وهو الدكتور محمد حسين هيكل الذي يقول:

"إنك لتكاد تشعر حين مراجعتك أجزاء ديوانه، كأنك أمام رجلين مختلفين جد الاختلاف. فأحدهما مؤمن عامر بالإيمان، مسلم يقدس أخوة المسلمين ويجعل من دولة الخلافة قدسا تفيض عليه شؤونه وحوادثه وحى الشعر وإلهامه؛ حكيم يرى الحكمة ملاك الحياة وقوامها، محافظ في اللغة يرى العربية تتسع لكل صورة ومعنى وفكرة وخيال. والآخر رجل دنيا يرى في المتاع

بالحياة ونعيمها خير آمال الحيـاة وغاياتهـا، متـسامح تـسع نفـسه الإنسانية وتسع معها الوجود كله، ساخر مـن النـاس وأمـانيهم، مجدد في اللغة لفظا ومعنى. وهـذا الازدواج في شـعر شـوقي مـن أول شبابه إلى هذا الوقت الحاضر".

ولم تكن تهمة الازدواج الشخصي والفني سوى تعبير عن هـذه المثالية الرومانسية التي تنكر تعدد الأصوات وتركيب الأمزجـة ، وتتوهم إنسانا ذا بعد واحد متجانس الظاهر والباطن، خاليا مـن القلق الوجودي والتقلب الإنساني المشروع ، ومن ثم فإنها تهمة لم ير شوقي بأسا من إثباتها في مقدمة ديوانه لما يكتنفها مـن اعـتراف صريح بعبقريته وعظمته.

أما النقد الاجتماعي فيشمل معظـم الدراسـات التـي تناولـت شعر شوقي، ابتداء من طه حسين إلى شوقي ضيف وأحمد الحـوفي وسعيد العريان وغيرهم من عشرات الكتاب والدارسـين ، وهـو في مجمله يربط الشعر بالعصر ويبرز استجابته لحاجـات المجتمـع الفكرية والوطنية والثقافيـة. ولعـل رأي طـه حـسين في التحـول الذي قلـب اسـتراتيجية شـوقي الـشعرية بعـد المنفـى أن يكـون نموذجا لهذا التيار إذ يقول:

"إنه قد تحول تحولا خطيرا حقا لا نكاد نعرف له نظيرا عند غيره من الشعراء الذين سبقوه إلى أدبنا العربي ، وهو تحول من ناحيتين خطيرتين، فأما إحداهما فهى أن شعره التقليدي قد تحرر من التقيد بظروف السياسة. والثانية أنه فجأة استكشف نفسه، وإذا هو شاعر قد خلق ليكون مجددا، فأقبل على التجديد في السنين الأخيرة من حياته، فأدخل في اللغة العربية في الشعر العربي خاصة فنا جديدا لم يسبقه إليه أحد ، وهو فن الشعر التمثيلي".

وأهم من ذلك عند طه حسين أن شوقى في كثير من قصائده الأخيرة قد أخذ يحقق النموذج الجمالي والفكري للإنسان المصري والعربي فهو " يحس ما نحس، ويشفق مما نشفق منه ، يحب الدستور ويكلف به ، ويتمنى في ألذ لفظ وأعذبه، وفي أمتن أسلوب وأصفاه، في أشد العبارات تمثيلا لأصدق العواطف، يتمنى إصدار الدستور:

زمان الفرد يا فرعون ولى ... ودالت دولة المتجبرينا
وأصبحت الرعاة بكل أرض ... على حكم الرعية نازلينا

ويبدو أن نجاح شوقى في التعبير عن طموح الأمة للحرية والديمقراطية هو الذي ضمن حماس طه حسين له، وهو الذي

جعله يزهو بنفسه وبدوره في صياغة الوجدان العربي العام ، وهو الذي جعل سعيد العريان يجزم في مقدمة الجزء الرابع من الشوقيات بقوله : " وما أحسب أن شاعرا في الأمة العربية منذ كانت وكان الشعر، قد ذهب صيته في الناس حيا مذهب شوقي أو بلغ مبلغه".

وربما كان النقد الأسلوبي المعاصر أكثر علمية وتوازنا في تقدير شعرية شوقى، حيث يرى الدكتور محمد عبد الهادي الطرابلسى أن أسلوب شوقى كان " يتغذى من رصيد ثقافي واسع، فخرج يمثل عصارة مصفاة من التراث العربي الفنى ومن المعارف العربية الإنسانية، إلى جانب تصويره تجربة طويلة للحياة والأحياء كانت للشاعر .. ولقد تميز أسلوب شوقى بالتوازن بين طاقتين : الإخبارية والإيحائية .. فحقق بذلك رسالة مزدوجة فكرية وفنية معا".

وركزت بعض البحوث الأسلوبية الأخرى، ومنها دراسات لصاحب هذا البحث، على اعتماد شوقى عددا من التقنيات الشعرية الفعالة لتوليد الدلالة عبر تجانس التراكيب ومفارقات الصياغة وآليات التكرار والتصوير وطرائق الاشتقاق والتجسيد؛ وهو ما أشبع الحس الجمالي لقارئه وأرضى توقعاته الموضوعية والفنية.

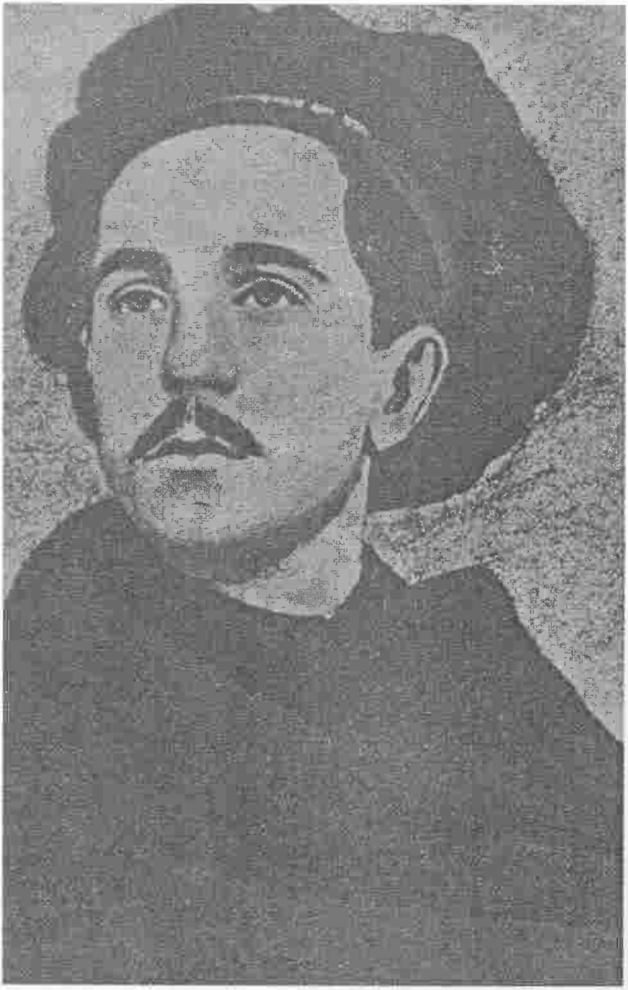

صورة نادرة لشوقي في جامعة مونبلييه